

الأزمة الصحية كمعيار لتقييم علائقية الأفراد

وفُرصة للكشف عن سيكولوجياتهم

مروان الواحسوني

تخصص علم النفس المدرسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب

ملخص

تتلخّص سطور هذه الورقة البحثية حول إشكالية قديمة بزغت مظاهرها من جديد خلال الأزمة الحالية (جائحة كوفيد-19) تتعلق بالجانب العلائقي للأفراد، تحديدا العلاقة مع الغير في بعدها الجسدي والعقلي، حيث تُحاول رصد أهم التغييرات التي مست هذه العلاقة وما صاحبها من مواقف فردية وجماعية، بهدف تقييم وتحيين حدودها، ضرورتها، وأهميتها.

كما تسعى من خلال أبعادها الذهنية والجسدية، الكشف عن سيكولوجية الأفراد بالموازاة مع تحديّات المنظومة الصحية العالمية، وما أفادت به مختلف الميادين المعرفية (الفلسفية، العلمية، الفنية، الأدبية، الثقافية)، وسياقا مع ما وقع من أحداث، وما نُشر من دراسات علمية مُوكّبة لها، لتخلص في الأخير إلى كون الأزمة الصحية فرصة قيّمة لقياس ذاتية الأفراد وللكشف عن سلوكياتهم ومواقفهم، وأيضا عامل أساسي يُفسّر أهمية هذه العلائقية إلى حدود اليوم.

Abstract

This research paper is centred on an old problematic that has emerged during the current crisis (Covid-19 pandemic). This problematic is about the relational side of individuals, especially the relationship with others, physically and mentally, as it tries to detect the most important changes that affected this relationship, and the individual and collective attitudes that accompanied it in order to assess its limits, necessity, and importance.

It also seeks through its dimensions, to reveal the psychology of individuals in parallel with the updates of the global health system, and what has been benefited from various cognitive fields (Philosophical, Literary, Artistic, Scientific, Cultural), and with the context of what happened in terms of events and scientific studies that has been published. To conclude, the health crisis is a valuable opportunity to measure the subjectivity of individuals and reveal their attitudes and behaviors, and it is also a fundamental factor that explains the importance of relationalism to the present day.

مقدمة:

عرجت بنا التجربة الحالية من جديد (جائحة كوفيد-19) لمعالجة مجموعة من القضايا والإشكالات الوجودية والقيمية التي أثير نقاشها منذ القدم، وظلت قائمة من دون جواب يقيني إلى حدود الفترة الراهنة. ومن بين هذه الإشكالات التي تخطت محدوديتها اليوم إلى حد كبير، وبرزت إلى السطح بشكل مُلفت للأعيان هي تلك **العلائقية الثنائية** المتعلقة: بالذات والغير؛ أي تلك العلاقة التي تربطني ما بين ذاتي من جهة، أو ما بين غيري من جهة أخرى.

أيهما المتوافق والأنسب مع الوضعية الراهنة؟ هل الاكتفاء الذاتي أم المشاركة الغيرية؟

إن الجواب عن هذا السؤال يقتضي أولاً مقارنته وفق التحديثات العلمية الأخيرة التي قدمت نسقا جديدا يُوظر هذه العلاقة، تبعاً لما فرضته الضرورة الوبائية من إجراءات احترازية ووقائية.

فما هي تحديثات المنظومة الصحية العلمية لهذه العلاقة؟ وما هي الحدود التي رسمتها لها، وما هي الجوانب التي أقصتها؟ وهل التحديثات التي أقرتها بشأنها كافية لتقييمها بشكل حتمي، أم تركت هامشا للحرية الذاتية حسب قصدية الأفراد وفاعليتهم السيكلوجية؟

هذه الحرية والقصدية الذاتية بدورها، لازلت اليوم لغزا مبهما وإشكالاّ تتعدّد فيه التفسيرات لأجل الظفر بمصدره وطريقة إنتظامه بالموازاة مع التطور الهائل في العلوم وأدوات القياس. ولعل فرضية مقارنته وقياس جوانبه، حسب طبيعة العلائقية اليوم، في بعدها الجسدي والذهني، قد يكون فرصة سانحة لمحاولة فك شفرته، وكذلك بعدا عقليا ثانيا يُحدد ويُوّجه أفاق ومأل هذه العلاقة من حيث استمرارها أو قيمتها.

فالحسم إن في هذه المسألة ليس بتلك السهولة الذاتية أو الموضوعية المتوخاة، فنحن لا نسعى في هذا المقال للحكم على شخصية الأفراد أو جودة المؤسسات من منطلق تسويغي أخلاقي محصور في ظرفية زمنية معينة؛ وإنما نسعى للإجابة عن سؤال بقي متذبذبا ومثيرا لسنين طويلة، وبغض النظر عما إذا كان هذا الجواب خيرا أو شرا؛ يعود أصله إلى ميل طبيعي فطري أو اجتماعي مكتسب؛ فالمهم هو تسليط الضوء على هذه العلائقية من جديد، وتقييمها وتقويمها حسب الظرفية الحالية.

1. المفاهيم الأساسية

الغيرية: اخترنا هذا المفهوم نظرا لما يتضمنه من دلالة تقترن بالسياق الحالي، أي الأزمة الصحية (جائحة كوفيد-19)، وما تستدعيه من إيثار، فحسب (جميل صليبا، 1982، ص 130-131) في معجمه الفلسفي يُعرف هذا الأخير على أنه: « تقديم غيرك على نفسك في النفع ». في مقابل الأثرة التي تعني العكس، وقد حددنا مظاهرها في مفهوم الذاتية كمفهوم إجرائي، نختزل فيه جل المفاهيم التحليلية الفدحية القريبة، كالنرجسية والأنانية وحب الذات المركزي المنغلق (l'égocentrisme).

الأزمة الصحية: حسب معجم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ALECSO, 2020, p. 28) لمصطلحات (كوفيد-19)، هي حالة صعبة أو نظام مُعقد يُؤثر في البشر في منطقة أو عدة مناطق جغرافية، وقعت أساسا في الأخطار الطبيعية، من مكان مُعين لتشمل الكوكب بأسره، [كما هو الحال مع (جائحة كوفيد-19) التي انسلت بدايتها من الصين لتشمل جميع بقاع العالم]. كما أن لها آثارا كبيرة على صحة المجتمع [الجسمية والنفسية]، وتمتد خسائرها إلى الأرواح والاقتصاد؛ وقد تتجم عن الأمراض أو الصناعات أو سوء السياسات.

العلائقية: تتحدر أصول هذا المفهوم مع الرواد الأوائل لمدرسة التحليل النفسي، الذين أعاروا أهمية كبيرة للعلاقة الوجدانية بين الذات وموضوع الرغبة، ثم ظهر بشكل بارز فيما بعد مع "نظرية التعلق" التي أكدت أهمية العلاقة الأمومية في نمو الذات (Greenberg & Mitchell, 1983, p. 12) وأشكال التعلق الأخرى اللاحقة من صداقة، قرابة، زواج، والتي أخذها مجال علم النفس الاجتماعي كموضوع لدراسته، وامتدت هذه النظرية أيضا لتشمل ميدان العلاج النفسي (DeYoung, 2003, p. 26). وحاليا يشير الدليل الإحصائي الأمريكي (DSM-5, 2015, p. 334) في تصنيفه إلى اضطراب التعلق التفاعلي.

2. تحديثات المنظومة الصحية لعلائقية الأفراد

قبل الخوض في تحليل هذه التساؤلات، وتقديم أجوبة مقنعة سواء انطلاقا من الملاحظة العينية لسلوك الأفراد والمؤسسات، أو رجوعا لبعض الأطروحات والدراسات التي سبق وأخضعت الموضوع لمحط نقاش علمي بيولوجي، سيكولوجي واجتماعي؛ فلسفي، أدبي وفني. تستوجب الإشارة بدءا، إلى أن هذه العلائقية التي أصبحت مصدر قلق وجدل آني، قد حدّدت معالمها (منظمة الصحة، 2020) في مجموعة من التحديثات، ونشير إلى أنها تخصصت فقط فيما يتعلق بالجانب الوقائي، وبالضبط في بعده الجسدي

الجسمي؛ نظرا لكونه يسهُم ويزيد من خطر انتقال وانتشار العدوى ما بين الأفراد والمخالطين، ويمكن تلخيص أبرز هذه التنبيهات والتوصيات على النحو التالي:

- تباعد مسافاتي: (اتخاذ مسافة جسدية/جسمية ما بين الأشخاص لا تقل عن متر واحد)؛
- تباعد مكاني: (إغلاق أو تجنب أماكن التلاقي والتجمع ما بين الأشخاص)؛
- تباعد لمسي: (تفادي أي ملامسة عند تحية الآخرين كالمصافحة و العناق)؛
- تباعد لباسي: (وضع كمامة أو قناع واقى للوجه يحمي العيون والأنف والفم)؛
- تباعد إعلامي: (توخي الحذر من بعض المواد الإعلامية الزائفة).

يتضح إذن بالملاموس -من خلال هذه الإجراءات الوقائية المستمدة من المجتمع العلمي- أن **الغير** في مناهه "القريب"، صار يُشكّل تهديدا للذات، بدل تعزيزها وتوكيدها لها، مما سينتج عنه إلغاء وتحيين لكافة الأنشطة التنظيمية وبعض التقاليد والمراسيم المعهودة التي كانت ترصد هذا التداخل، التقارب، والتشارك في الأمور الجسدية (كالتدريس، التعب، العمل، والاحتفال، الخ)، وفي المقابل، تعويضها بأنماط جديدة من التواصل والتعبير، ذات منحنى "بعيد" لأجل مواصلة التكيف مع الحياة.

3. العلائقية والأزمة الحالية بين البعد الجسمي و البعد النفسي

1.3. البعد الجسدي:

من الجيد أيضا أن نُوضح للقارئ العام، أن الحديث عن مفهوم **الجسد** لا يقتصر فقط على الجسد كمعطى بيولوجي؛ وإنما يضم أيضا كما أوضح الأستاذ الباحث (عبد اللطيف كداي، 2016، ص 123-128): المعطى الثقافي الاجتماعي في جانبه المظهري، الذي يبدي في رمزيته اليوم، لغة كونية جديدة، خصوصا في لباسه الدال على الدفاع، الحذر، والحماية من خطر الوباء. كما أن هذا الجسد اللباسي في حد ذاته، شكّل اليوم تهديدا للأفراد نظرا لما يتضمنه من إفرازات فيزيولوجية ناقلة أو منتقلة، كالعرق وإفرازات أخرى، من الممكن أن تكون سببا في العدوى، ومن ثمة صار الحذر منه واجبا، والزامية التخلص منه أحيانا، عن طريق استبداله أو تنظيفه، شيئا مطلوبيا عند كل استعمال. ما يؤكد لنا من جديد، علو كعب الجسد البشري، وهيمنته على الفعل الإنساني، والوعي الثقافي الكوني المحلي.

بالتالي إلى حدود الفقرة التالية، فنحن لازلنا نُسلط الضوء على حدود العلاقة التفاعلية في بعدها الجسدي لا غير، في حين أن التفاعل العلائقي ظل مستمرا -أي العلاقة ما بين الذات والغير- نظرا؛ لأن هذا

التفاعل مازال قائما بين الأفراد في بعده **العقلي السيكولوجي** انطلاقا من أنماط ووسائل أخرى صارت اليوم، الخيار الأمثل والبديل الآخر عن الواقع المادي (كمواقع التواصل الاجتماعي ومختلف المنابر التواصلية الإعلامية) التي تشهد اليوم خليطا وتشابكا مهما.

2.3. البعد النفسي:

بعد الحسم إذن في مشروعية هذه العلاقة الأنطولوجية في بعدها الجسدي من قبل المنظمة الصحية العالمية، إعتبارا لمكانتها المعيارية ومصداقيتها العلمية. نلاحظ أن هذا التقرير لم يمسس العلاقة في بعدها **العقلي السيكولوجي**، فإذا جردنا نحو هذا الأخير، سنجد مجموعة من الملاحظات والتعديلات التي مست سلوك الأفراد ونمط شخصياتهم. فهذا البعد الذي بقي متاحا ومرهونا بحرية الأفراد، هو الذي نسعى لتحليله في هذا المقال، وهو من سيؤهلنا أيضا لرصد المواقف والتصرفات التي اتخذها الأفراد تجاه هذه العلاقة الثنائية، كما سيمكننا من تقييمها حسب هذا السياق الأزمي؛ لكونه كما نفترض، هو الكفيل لإعطاء تصور واضح ومُفنع لمستقبل العلائقية لدى الأفراد.

فالرهان على الأزمة الحالية كنتقييم، للقطع مع هذه العلاقة أو تحيينها واستمرارها، هو رهين بما سيكشف عنه هذا **البعد العقلي السيكولوجي** للأفراد والجماعات، والذي يُعد مفهوم "المواقف" (Attitudes) تمثيلا موضوعيا يعكس أبعاده الثلاثة: البعد المعرفي (ما يعتقده الأفراد بشكل ساذج أو بشكل علمي)؛ البعد الوجداني (ما يوجه الأفراد بشكل فاعل أو بشكل منفعل)؛ البعد السلوكي (ما يسلكه الأفراد بشكل مرئي أو غير مرئي/فيزيولوجي)؛ فضلا عن مكانته التداولية في كثير من الأبحاث السيكولوجية مقارنة مع باقي المفاهيم الأخرى (Bègue & Desrichard, 2013, p. 223). وعلاوة على هذا المفهوم، نجد أيضا مجموعة من الدراسات المُسايِرة للأزمة الحالية، اعتمدت فئات قياسية أخرى - والتي سنسلط الضوء على بعضها كذلك - من قبيل سمات الشخصية، التمثيلات...، وغيرها من المفاهيم التي تعكس بدورها تمثيلا وتقييما موضوعيا للبعد السيكولوجي.

4. الأزمة الصحية كميّار فرضي لتقييم علائقية الفرد والجماعة

لقد اخترنا هذه الأزمة الصحية الحالية (جائحة كوفيد-19) كفرصة ورهان لتقييم علائقية الأفراد والكشف عن مواقفهم، من منطلق فرضية خاصة تفيد أن: "الظاهرة الإنسانية (الاجتماعية، النفسية، الإحيائية) تحت تأثير أزمة معينة تُهدّد الكيان الفردي والجماعي، تكون خاضعةً لنفس الاضطهاد والانتظام والتكرار"، فالحدث الأزمي يتسم بقدرة التوغل داخل ذاتية الفرد والجماعة، ويكشف عن مكانها وردودها، على خلاف الفعل الاصطناعي المختبري الكمي الذي لا يسري بشكل موضوعي مع التغييرية الإنسانية التي تعيق إمكانية الإحاطة بالوعي الذهني (Searle, 2004, p. 13). وكما قيل قديماً «في الشدائد تظهر معادن الرجال» أو «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»، ما نفهم من خلاله، أن الأزمة فرصة قيّمة لاختبار وقياس نقاط الضعف والقوة، وردود الفعل، الاستجابات، المواقف، وكذلك الدوافع الكامنة والمقاصد الغير المعلنة التي يستعصى جردها في الظروف العادية. وهي بهذا المعنى تكون بمثابة منظار كاشف، فإذا كان (Bourdieu, 1990) يعتبر أن الدور الموكول للعلوم الاجتماعية يتحدد في الكشف عن الأشياء الخفية أو المكبوتة في المجتمع «**dévoile des choses cachées ou refoulées**» من خلال أدوات قياسية وتقنيات بحثية، فالأزمة الحالية، تُعد اليوم مختبراً لاستقصاء هذه الكشوف، وفرصة لتنشيط هذا الاشتغال البحثي واستثماره. فكل شيء ينكشف خلال وضعية الأزمة، وكل ما بجعبة الإنسان من إمكانات، يُعلن بزوغه الأول، لدرجة أنه بذاته، لا يستوعب الكيفية التي برز بها هذا الإبداع، ويتساءل عن سبب غيابه في الماضي.

يُقدّم (كولن ويلسون، 2015، ص 169) تفسيراً في هذا الصدد يعتقد من خلاله أن لحظات الأزمة، هي لحظات يجب أن يَحْتَبَرها الجميع يوماً ما؛ لأنها على حد تفسيره تفتح له أفاقاً جديدة لم يعهدها من قبل. ويستدل من خلال حياته واصفاً أزمته التي خَبَرها في تجربة الانتحار أنها: «تُوفّر للمرء إمكانية فريدة - لا تتاح للآخرين- في معاينة الهاوية السحيقة التي هو مُزعم على الرحيل إليها، وهنا تتحقق له قدرة عجائبية في الفصل بين ذاته الحقيقية المبدعة بكل ما تحوزه من فرادة، وبين ذاته الأخرى النزقة العابثة، فهي نوع من إعادة ولادة لذات خلاقة عجزت عن رؤية إمكاناتها الثمينة قبل هذه التجربة الفريدة».

ولتبرير سلامة هذا الاختيار الزمني والتقييم الأزمي من حيث صدقه وثباته، نشير إلى أن الأزمة الصحية الحالية (جائحة كوفيد-19) تتطبق عليها نفس خصائص الخضوع التي افترضنا سابقاً (الاضطهاد، الانتظام والتكرار)؛ لكونها تندرج ضمن هذه الأزمات، والحوادث الطبيعية التي تنطوي على خطر الموت (مواجهة

حقيقة الموت) أو تهديد السلامة الجسدية، ويمكن تفسير هذه الخصائص والاستجابات الصادرة حسب المستويات التالية:

1.4. المستوى الاجتماعي (Sociologique):

يشهد التاريخ دائما أثناء حدوث أزمة معينة، ظهور نفس الإستجابات الجماعية، واتخاذ نفس الإجراءات السياسية الطارئة ونفس المواقف الانفعالية الغير عقلانية. جل هذه الردود الفعلية يمكن حصرها في استجابتين:

- سلوك جماعي لا عقلاني، يتبعه قصور في التنظيم وفشل في التدبير؛
- سلوك جماعي عقلاني، يتبعه تنظيم مُحكم وتدبير جيد للأزمة؛

بالنسبة للموقف الأول، أثبت التحليل السوسولوجي والاقتصادي مع كل من (هربرت سيمون، وميشيل كروزير) من خلال مفهوم "العقلانية المحدودة" (rationalité limitée)، وكذلك مع (رايمون بودون) من خلال "النتائج الغير المنتظرة" (effets pervers): الإقرار النسبي لعقلانية الفعل الاجتماعي، خصوصا في لحظات معينة من التنظيم واتخاذ القرار، فهذه العقلانية المحدودة ليست قاصرة فقط على التناقضات الوضعية عند مقارنة الظاهرة الإنسانية بالمماثلة مع الظاهرة الطبيعية (أوحسين، 2018، ص 85)، أو نتيجة لذوبان الفرد في شكل جماهيري جمعي (لوبون، 1991، ص 53-54)؛ بل صارت ضحالتها ومحدوديتها تتجلى أيضا في سياق الأزمة. فالنزعة العقلانية على الأساس باتت تستوجب إعادة النظر؛ لأنها كما يقول (إدغار موران) « أصبحت تلتهم العقل من دون أن يعي بذلك (...)، فهي لاعقلانية بذاتها من خلال ما تُمارسه من تبرير عقلي، فالأزمة الحديثة للعقلنة -[بصرف النظر عن أزمة كورونا]- كشفت عن اللامعقول في العقل، وجعلته أكثر استبدادا من أي نظام آخر ». (سبيلا و بنعبد العالي، 2006، ص 20). وفي هذا الإطار، تعود من جديد أطروحة الفيلسوف (باروخ سبينوزا) لتعكس لنا أحقية هذا التصور؛ بحجة أن حقيقة الإنسان ومواقفه الصريحة، لا تخضع لمنطق العقل بقدر ما تخضع لمنطق الرغبة.

في سياق آخر يندرج الفعل الجماعي العقلاني، في أشكال التدبير المؤسساتي التي تتحدد من خلال جودة التنظيم السياسي، الحقوقي، الاقتصادي، والتربوي الثقافي للمجتمعات، حيث ترصد الأزمة فروقا دالة ما بين المجتمعات المتقدمة ونظيرتها المتأخرة، من حيث طريقة التدبير وإدارة الأزمة التي لها دور كبير في تأطير الوعي الجمعي للأفراد، وتسيير الوضع الاقتصادي والسياسي للدول، إضافة إلى المساهمة والخدمة الفعالة

للمؤسسات (الأسرة، المدرسة، المستشفيات، الإعلام، المنظمات...)، وكذا مواقف بعض الجماعات (الخدمات الاجتماعية، وأشكال التطوع والمساندة...). فبالنسبة لهذه المجتمعات لا تكاد تكون الأزمة سوى فآل خير نحو مزيد من التغيير، وسبيل للبناء والتقدم ومناسبة لحصد التغيير المجتمعي، وبالتالي حدوثها ضرورة صراعية لبلوغ التغيير المنشود (changement social)، فالبلدان المتقدمة نسبيا، هي البلدان التي واجهت أزمت حالكه كالحروب العالمية أو الكوارث الطبيعية.

2.4. المستوى الإحيائي (Biologique):

نخص بالذكر هنا، الأجهزة العضوية للكائنات الحية على سبيل المثال: (الجهاز العصبي أو المناعي)، فكما هو معلوم في مجال الإحياء تظهر جميع إمكاناتهما الحيوية خلال وضعية-أزمة معينة أو خلال وضعية خطر مُحقق، والتي تتلخص كذلك في استجابتين:

- إما التدبير الدماغي العصبي السليم، أي الاستجابات الإيجابية النمطية؛
 - أو التدبير الدماغي الغير السليم، أي الاستجابة الغير نمطية التي تكشف عن عجز أو قصور؛
- فالجهاز العصبي مثلا أثناء الضغط (stress)، أو الانفعال (passion/émotion)، يكشف عن جل مقوماته الذاتية الإبداعية، والغيرية التعاونية مع أجهزة أخرى، كإفرازات هرمونية (الجهاز الغددي)، وحركات إرادية، لا إرادية (الجهاز العضلي)، وفي الأخير اتصالات عصبونية للمواجهة أو لتهدئة الخطر، وأي قصور أو نقص مناعي، أو خلل وسوء تدبير في هذا الصدد، قد يكون سببا في تعطيل الاستجابة الملائمة وردة الفعل المطلوبة، وستظهر آثاره في الوضعية الأزمية التي تُقابلها الذات- (Lopez, 2014, pp. 13-14)، وبالتالي لا شيء سيختفي، وكل شيء سيظهر على حقيقته البيولوجية.

3.4. المستوى السيكولوجي/العقلي (Psychologique):

هذا المستوى لا يختلف كثيرا عما سبق ذكره في المستوى البيولوجي والاجتماعي، فالظاهرة السيكولوجية الحديثة، ظاهرة متعددة الأبعاد (أحرشوا، 2018، ص 12)، والاستجابات السيكولوجية التي تحدث للأفراد بما فيهم الجماعات، هي نتيجة لرد فعل سيكو-بيولوجي سياتي، يشمل التنظيم العقلي الكامل للفرد (في معرفياته، وجدانياته، سلوكياته). فالذات خلال حدث معين (événement) ينطوي على تهديد بالموت أو تهديد للسلامة الجسدية، سرعان ما يُخاطب عقلها ليختبر صلابته السيكولوجية، وخبراته الذكوية. وتتفاعل الذات مع هذه العملية عن طريق استجابتين:

- إما عقلنة الوضعية، وتحمل الضغط الناتج عن الحدث، وتحويله لأشكال إبداعية أخرى؛
- أو العكس فشل التدبير العقلي في مقاومة الضغط، وبالتالي التعرض للاختلال والصدمة؛

فتأثير الحدث الأزمي الضاغط لا يؤدي تلقائياً إلى حدوث صدمة نفسية (traumatisme psychique) ناهيك عن اضطراب ما بعد الصدمة (ESPT)، فالدراسات تؤكد أن معدل التعرض للصدمة المباشرة نتيجة أزمة أو ضغط، يتراوح ما بين (16 في المائة إلى 89 فالمائة)، أما بخصوص اضطراب ما بعد الصدمة فيتأرجح ما بين (10 في المائة، إلى 35 بالمائة) بحسب بعض البيئات أو بعض العوامل (Boudoukha, 2009, p. 34) هذه العوامل لها ارتباط كبير بردة الفعل السيكولوجية تفاعلا مع الحدث (réaction psychologique) التي تختلف من شخص لآخر حسب الفارق العمري أو التاريخ النفسي للضحية قبل الصدمة (Breslau, Glenn, Andreski, & Peterson, 1991, pp. 216-222)، لاسيما سوء المعاملة في مرحلة الطفولة (Brewin, Andrews, & Valentine, 2000, pp. 748-757)، وأحيانا قد ترجع لطبيعة الغزو السببي الذي يُسند الضحية (Tennen & Affleck, 1990, pp. 209-232).

ومن المؤكد أن بعض الأحداث الضاغطة لا تُعتبر أحداثا صادمة، بالرغم من ألمها الشديد على سبيل المثال: (فقدان الوظيفة، مشاكل زوجية، صعوبات مالية)؛ بحيث ينعدم فيها خطر حقيقي (Risque)، خصوصا خطر الموت، بالتالي تشخيصها يُبقيها على أنها أحداث تمتد من صعوبة في التكيف إلى اضطراب في التكيف (AD)، وليس الصدمة بالمصطلح المعياري (Boudoukha, 2009, p. 34).

ينطبق هذا الأمر أيضا في المقاربة التحليلية النفسية (psychanalyse)؛ بحيث تتم الاستجابة أثناء خطر الأحداث الضاغطة الخارجية، بواسطة آليات الدفاع النفسي، الباعثة على المواجهة، التي تكبُت الشعور بالقلق (من خلال أعراض مرضية)؛ أو الباعثة على التهدة والانشغال التي تعمل على تحويل القلق أو التسامي عليه بمواضيع أخرى (كالإنتاج والإبداع) (فرويد، 1989، ص 33). وهذا الأخير هو ما يُفسر الأشكال الإبداعية التي برزت خلال (جائحة كوفيد-19)، منها الأعمال الفنية التي يعرضها المركز الوطني الفرنسي للموارد والمرونة (CN2R, 2020) في مجموعة من المجالات (كالرسم، الكتابة، الموسيقى، والفكاهة...). ومن ثمة تصير كل الإمكانيات التي يزر بها الجهاز النفسي في لحظة الخطر، إما أن تطفو إلى السطح ويسطع بريقها المميز، أو العكس يعود نكوصها (régression) الغير المتبث إلى مراحل طفولية سابقة، وبالتالي الاعتلال والاضطراب.

نستنتج مما سبق، أن الحدث الأزمي يُعزّي تماما على شخصية الأفراد، ويكشف عن مدى صمودها النفسي من حيث: دفاعاتها، كفاءتها، مرونتها، فضلا عن سجلها التاريخي البيولوجي. ما يُعرج بنا للقول أن جل الجهود التنشئية، التربوية، والتنمية لعقلنة الإنسان وجعل سلوكه معدلا، ووجدانه مهذبا، واعتقاده منظما لا تستقيم في الأوقات الصعبة وسرعان ما تعود إلى أصلها الغريزي من جديد.

5. مواقف الفرد والجماعة خلال الأزمة الحالية بين الذاتية والغيرية

1.5. موقف الجماعة

هذه العقلانية الفريدة أو اللاعقلانية الهشة التي حللنا مظاهرها خلال المستويات السابقة، نجد لها تفسيراً وتأكيذاً في مختلف الوقائع النرجسية التي ظهرت إبان الأزمة الحالية حتى حدود اليوم، ليس فقط من حيث الفعل السلوكي الفردي، بل همت أيضا الفعل الجماعي للمؤسسات والدول الحاكمة، فمن المعروف أن الأزمة بمختلف أنواعها الكارثية، الصحية، أو الاقتصادية تُعري على جل المقومات والنواقص البنيوية والحيوية التي تزخر بها دولة معينة، بما في ذلك القرارات والمواقف المتخذة، فإما تكشف عن شجع سياساتها وسوء تدبيرها أو على النقيض، الحكمة في تسيير شؤونها، فتتخذ بذلك إما موقفا ذاتيا أنانيا، كما حدث مع تكتل الاتحاد الأوروبي الذي أدار ظهره للمحنة التي كابدها دولة إيطاليا في بداية (جائحة كوفيد-19)، وأيضا ما حصل من سرقة واحتجاز للمعدات الطبية المحملة في الطائرات الخاصة ببعض الدول (سكاي نيوز، 2020). أو في المقابل نجد العكس، تتخذ موقفا غيريا كما فعلت دولة المغرب حينما اتخذت على سبيل المثال موقفا تضامنيا تعاونيا مع بعض الدول الإفريقية، بما في ذلك دولة لبنان التي تعرضت لأزمة كارثية بتاريخ (4 غشت 2020) في عُقر الأزمة الوبائية والأوضاع الداخلية الصحية والاقتصادية التي تعيشها دولة المغرب (هسبريس، 2020).

كما ظهر ايجابيا هذه المواقف لدى بعض المؤسسات التي عبرت عن نواياها الصادقة واحترافها المهني، وكشفت عن غيرتها وتضامنها المطلق والتي تستحق بذلك التكريم، التقدير، والاهتمام. ومن بين هذه الأمثلة التي برزت في الساحة الأزمية:

- المؤسسات الصحية: (تُعد التضحية الأولى التي تصدت للوباء بشكل يصعب وصفه)؛
- المؤسسات العلمية: (التضحية بالوقت والجهد من أجل إيجاد لقاح أو مصل أو علاج)؛
- المؤسسات المدرسية: (التضحية من أجل استمرار العملية التعليمية وتنشيط المعرفة)؛

– المؤسسات الأمنية: (التضحية والسهر على أمن الأفراد، وسلامة سير النظام المعتاد).

في حين بعض المؤسسات الأخرى وجدت في الأزمة فرصة ذهبية (crise comme opportunité) (Brockner & James, 2008, pp. 94–115) ليس بالمعنى الإداري كما يظهر (إستراتيجية إدارة الأزمة)؛ وإنما بالمعنى المصلحي الذي أزلت فيه القناع وتخلفت فيه عن الميعاد، وكشفت عن سوء جودتها باستغلالها الوضعية الراهنة بشكل ذاتي نرجسي، لأجل كسب مطامع اقتصادية أو سياسية. وليس من الغريب تصنيف بعض المنابر الإعلامية في خانة هذه المؤسسات التي لقيت سمعة سيئة خلال الأزمة الحالية بسبب ما كانت تنشره من أخبار ربحية زائفة.

2.5. موقف الفرد

في الوقت الذي أخذت على عاتقها مجموعة من الذوات الحرص على تقديم مبادرات تطوعية إنسانية، خاصة في الميدان الصحي الاجتماعي، عن طريق تسخير كفاءاتها والتضحية ببعدها الجسدي والعقلي السيكولوجي، بغية علاج وتأهيل وتربية الآخر "الغير" والحرص على صحته وسلامته، ثم كفرصة زمنية لتعظيم التشابك وصلة الوصل التواصلية مع جل الأقرباء والأصدقاء من خلال بناء نسق تضامني، واجتماعي افتراضي كغاية مثلى في ذاتها، وليس كشكل ألي قهري مفروض لأجل تلبية الواجب المهني أو كوسيلة لاستخدام وتشبيء الغير للترفيه وتلهية الوقت أو التنفيس من الخوف المجهول.

وجدنا في الضفة المقابلة مجموعة من الذوات الأخرى التي تخلت عن أقرب من كان بجوارها علانقيا (جسديا وعقليا)، مقتنعة أنه مصدر إزعاج وتأخير لها في تحقيق أهدافها، ومشروعها المستقبلي، واتخذت من عبارة جون بول سارتر « الجحيم هم الآخرون » الشعار الأمثل لها، فجل ما كانت تعتقده خلال هذه الجائحة وتدعو إليه، هو تركية العزلة وجل الأشكال التي ترمي للحد من الحياة الاجتماعية وأشكال التعلق (تركية التباعد، إغلاق الهواتف...)، في مقابل الحرص على تسخير الذات وانضباطها وتنميتها في الوقت الغير المناسب؛ أي في زمن يحتاج إلى التطوع والتقسام، فأختارت بذلك عدم تطوع نفسها وتقديم خدماتها للآخرين من خلال تفعيلها لسلوك دفاعي نرجسي من قبيل برامج يومية: (جشع التسوق، الرياضة، والقراءة والتأمل، والصلاة...) ليس كنمط صحي مطلوب لتخفيف المعاناة، أو كنمط اعتيادي يومي؛ وإنما كسلوك دفاعي زائف خوفا من المجهول، وانسحاب مُخل للأخلاق وقيم التعاطف والتآزر والاحترام.

ونشير إلى أن هذه المظاهر تَمثلت وتجسدت بشكل واضح، في الواقع الافتراضي الذي يسهل من خلاله قياس درجة صبر الأفراد وطريقة تدبير تفاعلاتهم وانفعالاتهم الافتراضية، كمدى صمودهم من دون إغلاق حساباتهم الشخصية داخل مواقع التواصل الاجتماعي (فعل الإغلاق أو تجميد علاقاتهم الافتراضية مع الآخرين، أحيانا يبلغ درجة توقيفها بصفة نهائية من دون أي سبب). هذه التصرفات والسلوكيات المفاجئة، تستدعي الدراسة للأجل فهم جذورها النفسية التي قد توحى بتاريخ نفسي يحمل في طياته تصدعات نفسية متناقضة، تتمحور تارة ما بين حب الذات وتارة الخوف من الانفصال عن الآخر.

بالتالي هل يجوز اعتبار كل من تجرأ في هذه الوضعية الأزمية التي حلت بالعالم، واقتنصها كفرصة للذات من أجل الذات، أن نصفهم بحالات باتالوجية ونعتهم بجل الأشكال النرجسية المرضية التي سبق وأشار لها (سيغmond فرويد، 1982، ص 51) في مفهوم النرجسية الأولية والثانوية؟ وهل من الممكن أن يضيف التباعد الاجتماعي، النرجسية الثالثة كمفهوم جديد وشكل آخر من ارتداد الليبدو نحو الذات أم أن هذه النرجسية مجرد عزلة مؤقتة لا تُعبر عن الاضطراب العلائقي لدى الفرد والجماعة؟

6. العزلة الاجتماعية بين تنمية الذات أو اضطراب الجانب العلائقي

1.6. أهمية العزلة:

قد نتفق تماما على أهمية العزلة الاجتماعية (isolement) واكتساب القدرة على البقاء وحيدا (seul être)، ولا ننكر أهميتها في تنمية الذات نحو الأفضل، والتجرد من الواقع الحسي، فضلا عن إعطاء الذات فرصة لمراجعة أوراقها وتقييم وجودها كما جاء على لسان بعض الأطروحات السيكلوجية والفلسفية (Storr, 1988, pp. IX-XV) التي تنتقد أشكال التعلق الاجتماعي الغيري لما فيه من استلاب للذات، وتدعو بديلا عن ذلك التضحية تجاه الذات بدل الغير (Stirner, 1912, p. 33)، يقول نيتشه في هذا الصدد: « امتداح المجتمع لفضيلة الغيرية هو امتداح ضار بالفؤاد، وامتداح لميول تسلبه أنبل حب لذاته، وقدرته على أن يرعى نفسه على أكمل وجه » (زكرياء، 2018، ص 144). ونجد هذا الاعتماد الذاتي على نحو متطرف في الفلسفة الرواقية، و مجموعة من الأدبيات والمعتقدات الدينية التي تتمثل في أشكال التصوف الديني، والأدب الرومانسي « الشخصيات التي لا تفكر إلا في نفسها »، من خلال إعطاء قيمة لبدائل روحية، ميتافيزيقية، ومكانية بعيدة كل البعد عن الواقع الحقيقي المادي في علاقاته، أشخاصه، أزماته، ومعاناته. في مقابل اتخاذ مواضيع من قبيل (الروح، الغابة، البحر، التأمل، والموسيقى...) كمواضيع لتحقيق التوافق والاستقرار النفسي (راغب، 1977، ص 24-25).

2.6. خطورة العزلة:

غير أن تحول هذه العزلة إلى نوع من النرجسية الأنانية التي تنفي وجود الغير أو نوع من العدائية التي تُسيء للآخرين كما شبهها الفيلسوف (توماس هوبز) بحالة الطبيعة « حرب الكل ضد الكل »، آنذاك يمكننا الحديث عن حالات لا توافقية وضد اجتماعية، قد تشير في تصرفاتها إلى أعراض إكلينيكية مرضية أو سمات انغلاقية تستهدف جوانب شخصية الفرد وعلائقته مع ذاته أو مع غيره، كما هو الحال مع مصطلح متلازمة الكوخ الذي تم تداوله مؤخرا بكثرة في المنابر الإعلامية (Gaita, 2020) حيث يُمكن لمظاهره أن تُندر باضطرابات عقلية إذا استمرت أزيد من ستة أشهر، وقد سبق لمنظمة الصحة العالمية (World Health Organization, 2020) أن لمحت لهذا الأمر حينما أكدت زيادة كبيرة مُحتملة في الاضطرابات العقلية، خصوصا أن معظم الدراسات التي أُنجزت حول تأثير العزلة الاجتماعية عقب فترة الحظر الصحي، أكدت بالفعل على آثار نفسية سلبية من قبيل: اضطرابات القلق، النوم، الاكتئاب، والاضطرابات الصدمية (ما بعد الصدمة، التعلق التفاعلي، التواصل الاجتماعي، التكيف، الضغط الحاد). و نبهت أيضا إلى التأثير السلبي لتجربة البقاء وحيدا وما لها من انعكاسات قد تكون مصاحبة لفترة طويلة المدى (Brooks, et al., 2020, pp. 912-920).

كما أن لهذه العزلة تأثير أيضا على النسق والبناء الاجتماعي، حيث لوحظ أن الأزمة الحالية أسفرت عن هوية وبائية كونية تُعلي من شأن الفردانية، إمتدت مظاهرها حتى في بعض المناطق التي كان يسودها جو من التضامن والتآزر، مما صار يُهدد قيم هذه المجتمعات ونمط العلاقات والروابط الخاصة بها، وهذه الأخيرة هي جوهر الانسجام والتماسك، وانعدامها أو قلقتها يساهم في تضخم الفردانية (اللامعيارية- Anomie) كما وصفها (Durkheim, 1897) مُعتبرا إياها في دراسته، السبب الرئيسي لظاهرة الانتحار.

7. تأثير التباعد الاجتماعي وغياب الغير خلال الأزمة الحالية

1.7. الدراسات الدالة:

الدراسات التي عمت في الفترة الحالية استهدفت الكشف عن التغييرات التي لحقت شخصية الأفراد، تحديداً في فترة الحظر الصحي، وما تلاها، حيث حاولت إبراز أهم السمات التي ميزت الأفراد خلال فترة الأزمة، فضلاً عن المواقف، والميولات التي عبر عنها الأفراد في علاقتهم مع الغير. عموماً هذه الدراسات تنطلق من إشكالية رئيسة هي:

- ماذا حدث بعد تقرير إجراء التباعد الاجتماعي (تباعذ الذات مع الغير جسدياً)؟ ما هي التحولات التي ميزت البعد العلائقي، تحديداً، في المواقف، التمثلات، وسمات الشخصية...؟

الدراسة الأولى: هذه الدراسة أُجريت من قبل الجمعية الأمريكية لعلم النفس بتاريخ (5 غشت 2020)، حيث بينت صدق فرضية الحاجة إلى التجمع مع "جماعة الغير" خلال (جائحة كوفيد-19) أو خلال أوقات الشدة عموماً، وأكدت من خلالها أهمية العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، بدليل استمرار التجمعات حتى أثناء الحظر، وجهاً لوجه وجنبا إلى جنب، بالرغم من التحذيرات الموصية بتجنب الاختلاط والاجتماع، حيث أبرزت الدراسة موقف وميل الأفراد للتواجد مع الغير كأعظم مصدر للراحة عندما تسوء الأمور، واستدلّت بالتأثير الملحوظ للتجمعات في الإنترنت ودوره في مساندة الأشخاص وتحسين صحتهم العقلية، وعلى أساس ذلك اقترحت "العلاج الجماعي" كتخصص فعال للحد من هذه الاضطرابات العلائقية (Marmarosh, Forsyth, Strauss, & Burlingame, 2020, pp. 122-138).

الدراسة الثانية: هي دراسة تمت في أمريكا من طرف جامعة ولاية فلوريدا، بتاريخ (6 غشت 2020)، عن مدى تحول سمات الشخصية وفق مقياس "نموذج السمات الخمس" خلال المرحلة الأولى من انتشار (جائحة كوفيد-19)، يظهر من خلال نتائج الدراسة أن العينة التي إختبرت التباعد مع الغير؛ أي عزلة الحجر الصحي، خلفت زيادة نوعية في سمة العصابية وانخفاض في سمة الإنبساط، في حين العينة التي لم تختبر عزلة الحجر الصحي، لوحظ عنها العكس (Sutin, et al., 2020, pp. 1-13).

الدراسة الثانية: أنجزت في المغرب من طرف مركز منصات، نُشرت بتاريخ (4 يونيو 2020) حول تأثير (جائحة كوفيد-19) على العلاقات الاجتماعية، من حيث المواقف، التمثلات، والممارسات وفي ما يخص نتائجها، فقد بينت بنسب عالية حاجة الذات إلى الغير والالتجاء له بصفة يومية، خصوصاً العائلة في المرتبة الأولى ثم فئة الأصدقاء ثانياً، وعبرت كذلك مواقفهم عن ضرورة الغير وسجلت استقراراً في هذه

العلاقة الغيرية، فضلا عن تطورها نحو الأفضل، في حين نسب قليلة هي من عبرت بأن علاقتهم قد ساءت مع الغير (منصات، وآخرون، 2020، ص 5-10).

يتضح من خلال هذه الدراسات أن نسبة قليلة فقط من الأفراد هي من عبرت عن انبساطها للتخلي عن الغير، ونسب قليلة فقط من عبرت عن موقفها تجاه الذاتية عوض الغيرية. في المقابل، نسب كبيرة أظهرت تمثل ايجابيا نحو الغير وحاجته كسند في الوضعية الراهنة لتقادي الخوف من المجهول.

2.7. أنماط الشخصية الجديدة:

بناء على ما سبق من ملاحظات، دراسات علمية مؤكبة، نستخلص أن التصرفات والمواقف التي ظهرت في الأزمة الحالية تعددت، لكنها انحصرت في ثلاثة أنماط من الشخصية، نصوغها على النحو التالي:

- **الصف الأول (الذاتي):** الآخر شر على جسدي وشر داخل عقلي، وقد سبق وإصطلحنا عليه في معرض تحليل ذاتية الأفراد، بالنرجسية الثالثة، لاسيما وأن الأزمة كشفت عن أمور كانت كامنة ومقموعة، نتيجة خوف طبيعي في الإنسان أو نتيجة خوف مرضي نكوصي.
- **الصف الثاني (الغيري):** الآخر شر على جسدي وخير داخل عقلي، هذا النمط اعتبر الأزمة فرصة لنكران الذات عوض مركزية الذات، وفرصة لإعادة لتحسين العلاقات الاجتماعية وإرساء قيم التضامن والتعاون والتآزر أو على الأقل احترام سيكولوجية المرضى والمتوفين (كتجنب نشر الصور والأخبار التي تزيد من معاناة الآخرين...)، وكذا التوعية بخطورة المرض وضرورة الالتزام بالتدابير والمناشدة لمساعدة المحتاجين.
- **الصف الثالث (الآلي):** هو النمط المفعول به، بدون موقف، يتصرف بشكل ألي حسب ما يمليه الواجب المهني القهري، وليس لأن الآخر خير، عقليا أو جسديا؛ بل لأن الواجب المهني يُحتم عليه الفعل الأخلاقي، لذلك عملهم لا يحظى بالحب والاهتمام؛ وإنما بالنسبة لهم مصيدة في هذه الظرفية الحالية، لذلك لاحظنا فئة منهم تلصقت عن العمل أو عزمت على المغادرة.

8. الأزمة كسبب رئيسي في تفضيل موقف الغيرية

إن هذا الاعتراف بالغير والحاجة لمساندته في الأزمة الحالية، مَكَّن من فهم العديد من الأسباب الكامنة وراء تفضيل موقف الغيرية، وفسر أيضا العلة من حضورها البارز في مختلف الميادين والعصور، فعلى سبيل المثال نجد هذا التفضيل الداعي إلى الغيرية مقدسا في النصوص الدينية كالحديث النبوي الشريف: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) (البخاري، 1400هـ)، أو في الكتاب المقدس: « حب جارك حبك لنفسك ». ما يُفسر أن التمسك بهذا الموقف، أي الدعوة لمحبة الغير وإغفال الذات، ليس نتاجا لحاجة اليوم؛ بل هو حسب تحليل (Fromm, 1939, pp. 507-523) يعود في أصله الغربي إلى المعتقد الديني خصوصا مع الكالفينية (Jean Calvin) التي عظمت من شأن الغيرية ووصفت الأناثية «وباء» وذنبا من أعظم الذنوب.

بدورها الأنثروبولوجيا تشهد أن الموقف الغيري يعود في أصله إلى نسق المجتمع البدائي؛ لذلك هو عالق في الضمير الجمعي للمجتمعات، ويُعد مَكُونًا أساسيا لتاريخه؛ نظرا للخبرات التي راكمها الإنسان البدائي، والتي أكدت له، أن مِحْنَهُ وَأَزْمَاتِهِ، لا سبيل لتجاوزها من دون الاتحاد مع الغير في إطار نظام قبلي أو جمعي (رايلي، 1985، ص 150-155).

ونجد لهذا الموقف الغيري تفنيدا وقبولًا أيضا في الأوساط المهنية والمباريات الانتقائية، بحيث يقول الباحث في الشأن التربوي (عبد الكريم غريب، 2009، ص 184): « رهان مدرسة اليوم لا ينحصر فقط في الجانب التلقيني المعرفي، بل يتطلب أيضا الإحاطة بالجانب المهاري الذي يؤهل للاندماج داخل المجتمع وحسن العيش المشترك ». وبطبيعة الحال فالمقاولة والمباريات المهنية تولي أهمية كبيرة لهذا الجانب، وتعتمده كشرط أساسي للتقييم والانتقاء، فالشخصية الاجتماعية المؤهلة، قادرة على الانسجام بسرعة مع شركاء العمل أو الدراسة، وأيضا يُعول عليها مستقبلا في حالة حدوث أزمة معينة. وحسب الباحثة السوسيولوجية (رحمة بورقية، 2012، ص 13-28): « المدرسة هي حضانة لإنبات وتقوية هذه القدرات المعرفية الأفقية التي تسعى لتحقيق الغيرية والعيش المشترك، من خلال إدراك قيمة المواطنة والمشاركة والرابطة الاجتماعية، والتعددية الثقافية الدينية، والشعور بالآخر »، فعلى المدرسة في نظرها أن تستجيب لهذا الطلب المجتمعي عن طريق مشروعها التربوي.

كما يُبين لنا الباحث (عبد الودود خربوش، 2010، ص 8-38) في كتابه "دور التفاعل الاجتماعي في اكتساب المعارف لدى الأطفال" أهمية هذا التفاعل مع الغير في النمو والتعلم، حيث يستحضر مختلف الأطروحات السيكو-سوسيولوجية الكلاسيكية منها والحديثة التي انصب اهتمامها حول العلاقة التفاعلية مع

الغير، بحيث أعقب في دراسته، جرذا لمجموعة من التوصيات التي اعتبرت التفاعل ضرورة ملحّة من أجل خلق صراع، تعاون، أو تدخل يفضي في النهاية لاكتساب استراتيجيات ذاتية ومعارف جديدة.

نفس الشيء يُدلي به علم النفس التطوري من حيث انتقاء الأفراد لشريكهم الجنسي، حيث تؤكد الدراسات التطورية (باس، 2009، ص 259-260) أن الأفراد ذوي النمط الذاتي المُتمركز، لن ينجحوا في الاقتران الطويل المدى مع الغير، خاصة في علاقاتهم الزوجية، نظرا لأعراض التجنب، الانسحاب، صفات التملك، والاعتمادية التي تظهر على زوجاتهم أو أزواجهم، وكذا انفعالات الغضب، التي أحيانا تمتد لإلحاق الأذى اللفظي أو الجسدي.

في الميدان الصحي أيضا تؤكد العديد من الدراسات (Uchino, 2006, pp. 377-387) أهمية السند والدعم الاجتماعي (Support Social) الذي يقدمه الآخر "الغير" في عدة مناحي نفسية وجسمية، وأثبتت فائدته الايجابية في تحسين وظيفة المناعة وكذلك وظائف فيزيولوجية أخرى، دون التقليل أيضا من شأن الدعم الذي يتم تقديمه عبر الإنترنت (Taylor, 2011, pp. 189-214)، وحسب نظرية فائدة الانتماء (The Utility Affiliation Theory) يُعتبر التواجد مع الغير وإبداء التواصل معه، خصوصا في أوقات الشدة أو حالة الإصابة بالمرض الشديد، له دور كبير في تجاوز وقع الأزمة والتخفيف من المعاناة وكذا التقليل من حدوث الضغط أو الصدمة، فالعلاقة بين الأوقات الصعبة وتدهور الصحة كانت أقل عند الناس الذين يملكون دعماً اجتماعياً أكثر، مقارنة مع ذوي الدعم القليل (Rofé, 1984, pp. 235-250).

كما تمّ تجسيد هذا الموقف الغيري بشكل جد واضح، في الميدان الفني السينمائي من خلال فيلم (Cast Away) لمخرجه (Zemeckis, 2000)، حيث يُصوّر من خلاله استحالة العيش وحيدا؛ إذ أن فقدان التواجد أو التواصل مع الغير، أدّى بشخصية الفيلم لإنشاء كرة ملطخة بالدماء لقبها باسم "ويلسن" كصورة تقريبية لملمح الوجه الإنساني؛ كي تُخفف عنه وطأة المعاناة التي لحقته في أزمته. ولعل اقرب تصوير لهذا الفلسفة الإخراجية هي الدمية التي تصطحبها ابنة الفنان الرسام (Picasso, 1938) في لوحته الفنية الطفلة "مايا والدمية" (Maya à la poupée) التي ترسم حضور الغير رمزيا وسيكولوجيا حتى في انفصاله جسديا.

نخلص إذن حسب هذه التفسيرات، أن الأفراد ذوي النمط الغيري يتصفون بنفس طويل لإتمام مسارهم (الفردية، الدارسية، الزوجية، المهنية) على نحو سليم، علاوة على صموهم النفسي خلال حياتهم أو عند تدبير خلافتهم العلائقية، فضلا عن اتسامهم بالانضباط، الانبساط، والمشاركة الغيرية الجماعية الموطنة.

9. استنتاجات

من خلال هذا التحليل المُقتضب، يتضح جليا أهمية موقف الغيرية خلال فترة الأزمة، حيث تشير مجمل الملاحظات والدراسات التي تمت الإشارة إليها في هذا المقال، إلى أن الغيرية موقف له إيجاب ونفع كبير، على الأفراد والجماعات، كما أن له مرجعية أخلاقية وعلمية مهمة، على الرغم من أنه لم يلقى تأييدا فلسفيا وعلميا شاملا، إلا أن الأزمة الحالية كانت جوابا فرضيا حاسما يؤيد صحة هذه العلائقية الغيرية من حيث ضرورتها ومنافعها، وعلى أساس ذلك، تصير الأزمة معيارا، شاهدا، معقولا، ومرجعا موثوقا لتقييم "الموقف الصائب" الذي يجب أن يتحلى به السلوك البشري الإنساني.

وقد برهنت الأزمة الحالية فعلا ضرورة وجود/حضور الغير، ورجحت كفة الموقف الغيري على التصور الذاتي نظرا لما تطلبتة الظرفية الحالية من حاجة ماسة إليه. فمقتضيات الأزمة وواجباتها الأخلاقية، الاجتماعية، والنفسية، تتجه في الأخير لتفضيل الموقف الغيري على الذاتي، كجواب على هذه الإشكالية القديمة الحديثة.

في الأخير، هذه الاستنتاجات التي خلصنا إليها لا تعكس عدم توافقية الأبعاد السيكلوجية، البيولوجية، والاجتماعية للأفراد أو تدل على انتهازيتهم وانحطاطهم انحيازاً فقط على ظرفية معينة، بقدر ما هي إشارة لأرضية خصبة تفتح المجال لإجراء مزيد من البحوث والدراسات حولها، وأيضا هي دعوة لتسليط الضوء على هذه الفترات والأحداث الكبرى في قياس مواقف وسلوك الأفراد.

خاتمة

ختاما لكل ما سبق، نعرض ما يقدمه لنا المُفكر والكاتب الكبير (كولن ويلسون) كحل لهذه الجديلة العلائقية التي حلت في عالمنا المعاصر -حضارة القرن العشريني- انطلاقا من نموذج حياته، الذي أوضحه في كتابه سيرة ذاتية: "حلم غاية ما"، يسرد من خلاله صعوبة الحسم في هذه المسألة نظرا لتداخلها مع مجموعة من المفاهيم: الإبداع، العبقرية، اللانتماء، الضجر، الاكتئاب... وعلى إثر ذلك، يُعزُّ بأهمية الانضباط الذاتي، وتجنب اليومي الرتيب (auto-robot)، والسعي لبلوغ حالات الذروة (Peak experience) التي تحدث عنها (Maslow، 1970)، لكن في نفس الوقت لا يستبعد دور العلاقات الاجتماعية؛ لأن استبعادها قد يُفضي بالفرد إلى قول "لا، النهائية" التي يقصد بها الغرق في الذاتية إلى حد العدمية السلبية والانتحارية، وهو الأمر الذي حلله في كتاب "اللامنتمي" وقدم أمثلة بما حل مع بعض نماذج اللامنتمين في الأدب، الفن، والفلسفة مثل كل من (فان كوخ) و(فريدريك نيتشه) حيث أدى بهم موقف الذاتية المفرطة إلى نهاية حتمية مأساوية. هذه النهاية التي لحقت بهم يُفسرها بأنها نتيجة: « لأنهم أداروا ظهورهم تجاه هذه الحياة وكرسوا حياتهم لتنمية الذات من خلال محاولة الوصول إلى ما كانوا يصفونه "التوق الأبدي"، ولكن، للأسف لم يكن الهروب من ساحة الحياة اليومية حلا منطقيا ومعقولا». (ويلسون، حلم غاية ما، 2015، ص 341)، لذلك يجب على الإنسان في نهاية المطاف كما يوصي (إدغار موران، 2009، ص 92) « أن يحيا اليوم لذاته وللآخرين، على نحو حوارى [تعددي] ».

قائمة المراجع الأجنبية

- 1) ALECSO. (2020). **Dictionary of COVID-19 Terms**. Rabat: Bureau de Coordination d'Arabisation.
- 2) Bègue, L., & Desrichard, O. (2013). **Traité de psychologie sociale: la science des interactions humaines**. Paris: De Boeck.
- 3) Boudoukha, A. H. (2009). **Burn-out et traumatismes psychologiques**. Paris: Dunod.
- 4) Bourdieu, P. (1990). Pierre Bourdieu explique le rôle de la sociologie. **Grand Entretien**. (A. Spire, Intervieweur)
- 5) Breslau, N., Glenn, D., Andreski, P., & Peterson, E. (1991). Traumatic events and posttraumatic stress disorder in an urban population of young adults. **Arch Gen Psychiatry**, 48 (3), 216-222.
- 6) Brewin, C., Andrews, B., & Valentine, J. (2000). Meta-analysis of risk factors for posttraumatic stress disorder in trauma-exposed adults. **Journal of Consulting and Clinical Psychology**, 68 (5), 748-757.
- 7) Brockner, J., & James, E. H. (2008). Toward an Understanding of when Executives See Crisis as Opportunity. **The Journal of Applied Behavioral Science**, 44 (1), 94-115.

- 8) Brooks, S. K., Webster, R. K., Smith, L. E., Woodland, L., Wessely, S., Greenberg, N., et al. (2020). The psychological impact of quarantine and how to reduce it: rapid review of the evidence. **The Lancet**, 395 (10227), 912-920.
- 9) CN2R. (2020). **Le collectif Cov'Art**. Consulté le 11 4, 2020, sur Centre National Ressources & Resilience: <http://cn2r.fr/le-collectif-covart/>
- 10) DeYoung, P. A. (2003). **Relational Psychotherapies: A Primer**. London and New York: Routledge.
- 11) Durkheim, E. (1897). **Le Suicide: Étude de Sociologie**. Paris: F. Alcan.
- 12) Fromm, E. (1939). Selfishness and Self-Love. **Journal Psychiatry**, 2 (4), 507-523.
- 13) Gaita, L. (2020, Mai 9). **Coronavirus, dopo il lockdown la sindrome della capanna e quella paura di uscire**. Consulté le 10 2020, 3, sur ilfattoquotidiano: www.ilfattoquotidiano.it
- 14) Greenberg, J. R., & Mitchell, S. A. (1983). **Object Relations in Psychoanalytic Theory**. London: Harvard University Press.
- 15) Lopez, G. (2014). **Prendre en charge les victimes d'agressions et d'accident**. Paris: Dunod.
- 16) Marmarosh, C., Forsyth, D. R., Strauss, B., & Burlingame, G. M. (2020). The Psychology of the COVID-19 Pandemic: A group-level perspective. **Group Dynamics: Theory, Research, and Practice**, 24 (3), 122-138.
- 17) Maslow, A. H. (1970). **Religions, Values, and Peak Experiences**. The Viking Press.
- 18) Picasso, P. Maya à la poupée. **Succession Picasso**. Agence photographique de la Réunion des Musées Nationaux, Paris.
- 19) Rofé, Y. (1984). Stress and affiliation: A utility theory. **Psychological Review**, 91 (2), 235-250.
- 20) Searle, J. R. (2004). **Mind: A Brief Introduction**. New York: Oxford University Press.
- 21) Stirner, M. (1912). **The Ego and His Own**, trans. (S. Byington, Trad.) London: A.C. Fifield.
- 22) Storr, A. (1988). **Solitude a return to the self**. New York: Ballantine Books.
- 23) Sutin, A. R., Luchetti, M., Aschwanden, D., Lee, J. H., Sesker, A. A., Strickhouser, J. E., et al. (2020). Change in five-factor model personality traits during the acute phase of the coronavirus pandemic. **Plos One**, 15 (8), 1-13.
- 24) Taylor, S. E. (2011). Social Support: A Review. (H. S. Friedman, Éd.) **The Oxford Handbook of Health Psychology**, 189-214.
- 25) Tennen, H., & Affleck, G. (1990). Blaming others for threatening events. **Psychological Bulletin**, 108 (8), 209-232.
- 26) Uchino, B. N. (2006). Social Support and Health: A Review of Physiological Processes Potentially Underlying Links to Disease Outcomes. **Journal of Behavioral Medicine**, 29, 377-387.
- 27) World Health Organization. (2020). **Mental health and COVID-19**. Consulté le 10 9, 2020, sur World Health Organization (WHO): www.euro.who.int
- 28) Zemeckis, R. L. (Réalisateur). (2000). **Cast Away** [Film].

قائمة المراجع العربية

- (1) إدغار موران. (2009). **النهج: إنسانية البشرية الهوية البشرية**. (هناء صبحي، المترجمون) أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة.
- (2) منظمة الصحة العالمية. (أكتوبر، 2020). **نصائح للجمهور بشأن مرض فيروس كورونا (كوفيد-19)**. تاريخ الاسترداد 2 أكتوبر، 2020، من منظمة الصحة العالمية:
<https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public>
- (3) الغالي أحرشواو. (2018). **العلوم المعرفية: من مخاض التعريف والتأسيس إلى رهان التطبيق والاستثمار**. **المجلة العربية لعلم النفس**، 3 (6)، 12.
- (4) جميل صليبا. (1982). **المعجم الفلسفي: الجزء الثاني**. لبنان: دار الكتاب اللبناني.
- (5) دافيد باس. (2009). **علم النفس التطوري: العلم الجديد للعقل**. (مصطفى حجازي، المترجمون) بيروت: المركز الثقافي العربي.
- (6) رحمة بورقية. (2012). **نحو مدرسة لبناء القدرات المعرفية**. **مجلة المدرسة** (5/4)، 13-28.
- (7) سكاى نيوز. (4 أبريل، 2020). **تركيا.. سرقة شحنة طبية يكشف زيف "الدعاية الإنسانية"**. تاريخ الاسترداد 2 أكتوبر، 2020، من سكاى نيوز: <https://www.skynewsarabia.com/world/1333939>

- (8) سيغموند فرويد. (1982). الأنا و الهو (الإصدار 4). (محمد عثمان نجاتي، المترجمون) القاهرة: دار الشروق.
- (9) سيغموند فرويد. (1989). الكف والعرض والقلق (الإصدار 4). (محمد عثمان نجاتي، المترجمون) القاهرة: دار الشروق.
- (10) عبد العاطي أوحسين. (2018). العقلانية المحدودة في السوسولوجيا، نسبة نوايا الفعل الاجتماعي. مجلة العلوم الاجتماعية، 5، 85.
- (11) عبد الكريم غريب. (2009). سوسولوجيا المدرسة. الدار البيضاء: منشورات عالم التربية.
- (12) عبد اللطيف كداي. (2016). الشباب والجسد: سؤال الخضوع والتمرد في مرآة الثقافة الاجتماعية. مجلة التدريس، 8، 123-128.
- (13) عبد الودود خربوش. (2010). دور التفاعل الاجتماعي في اكتساب المعارف لدى الأطفال. الرباط: منشورات دار القلم.
- (14) غوستاف لوبون. (1991). سيكولوجية الجماهير. (هاشم صالح، المترجمون) بيروت: دار الساقي.
- (15) فؤاد زكرياء. (2018). نيتشه. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- (16) كافين رايلي. (1985). الغرب والعالم (القسم الأول): تاريخ الحضارة من خلال موضوعات. (عبد الوهاب محمد المسيري، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
- (17) كولن ويلسون. (2015). حلم غاية ما. (لطيفة الدليمي، المترجمون) بغداد: دار المدى.
- (18) منصات للأبحاث والدراسات الاجتماعية، عبد الرحمن الزكريتي، محمد فاضل، هدى العدوني، أحلام ققص، إيمان النبيلي، وآخرون. (2020). المغاربة وكوفيد-19 التمثلات، المواقف والممارسات. الدار البيضاء: منصات للأبحاث والدراسات الاجتماعية.
- (19) محمد بن إسماعيل البخاري. (1400هـ). الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه. القاهرة: المكتبة السلفية.
- (20) محمد سبيلا، و عبد السلام بنعبد العالي. (2006). العقلانية وانتقاداتها. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- (21) نبيل راغب. (1977). المذاهب الأدبية من الكلاسيكية إلى العبثية. القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب.
- (22) هسبريس. (12 غشت، 2020). مساعدات المغرب لإنقاذ لبنان.. الملك يتصدر واجهة العمل الإنساني. تاريخ الاسترداد 2 أكتوبر، 2020، من هسبريس. عبد السلام الشامخ: <https://www.hespress.com/orbites/480865.html>